محاضرة طبقات فحول الشعراء

1- **محمد بن سلاّم الجمحي (231-139ه):** من مواليد البصرة، عمّر نحوا من ثلاث وتسعين سنة، تتلمذ على يد الأصمعي، بشار بن برد، خلف الأحمر، أبو عبيدة، والمفضّل الضبّي ويونس بن حبيب.

2-الكتاب: في تسمية الكتاب (طبقات فحول الشعراء) أكثر من رواية، تحدث عنها الأستاذ محمد شاكر في مقدمته لتحقيق الكتاب، فذكر أنّ كتبا كثيرة حملت عنوان **"طبقات الشعراء"**، استنادا إلى ما ذكره صاحب الفهرست (ابن النديم)، نذكر منها طبقات الشعراء لإسماعيل بن محمد اليزيدي، كتاب طبقات الشعراء الجاهليين لأبي خليفة بن حباب، طبقات الشعراء لابن المعتز لناطحة علي أحمد بن إسماعيل...[1]

3-تطور مفهوم الطبقة: جاء في معجم محيط المحيط لبطرس البستاني أن الطبقة يقصد بها في اللغة «الجماعة والزمرة والفئة وغيرها من الكلمات التي تقترب من المعاني المتضمنة لمدلول المرافقة والمطابقة»[2]، وقد اكتسى مفهوم الطبقة بعدا اصطلاحيا في الدراسات الدينية، لاسيما ما تعلق بالقراءات (طبقات القراء)، وكذلك ما ارتبط بتوثيق الحديث الشريف خاصة أعمار الرواة وأخبارهم.

4-مقياس الطبقات عند ابن سلام الجمحي: تميز ابن سلام عن علماء جيله بأنه أوّل من قام بينهم بمحاولة جادة، تمثلت في جمع شتات أراء سابقيه ومعاصريه في النقد العربي، وتنظيمها تنظيما علميا في كتابه معجم، «فكان بذلك قد وضع اللبنة الأولى في بناء النقد العربي وتوسعة آفاقه»[3]، إن عمل ابن سلام النقدي يستند إلى الرواية الإخبارية في تقويم العمل الأدبي وتصنيفه للشعراء في طبقات، إذ كان ابن سلام ينزل شعراء كل طبقة، فمنهم الشعراء الجاهليين في عشر طبقات، وصنف الإسلاميين في مثلها، فجمع أربعة شعراء في كل طبقة على حدة.

5- منهج ابن سلام: جعل ابن سلام كتابه (طبقات فحول الشعراء) في خمسة أقسام نذكرها كما يلي:

- المقدمة: تطرق فيها لنشأة بعض العلوم العربية وبعض قضايا النقد والأدب.
- طبقات الشعراء الجاهليين.
- شعراء المراثي.
- شعراء القرى.
- طبقات الشعراء الإسلاميين.

---

[1] - ينظر: محمود الربداوي، النقد العربي القديم، ط1، مطبعة الإنشاء، دمشق سوريا، 1982،ص 41.

[2] - بطرس البستاني، محيط المحيط، دار العلم للملايين، ط1، بيروت لبنان، 1977، ص 544.

[3] - قصي حسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان، 2003، ص 290.

إنّ هذا التقسيم يوحي بأن ابن سلام اتبع المنهج التاريخي لتبيان مدى ما لحق الشعر والنقد من تطور، ومدى الإضافة التي أضافها المتأخرون على المتقدمين، «ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء»[1]. أما تقسيمه شعراء كل عصر إلى طبقات، إنما كان يوحي بأنّ التفاوت بين الشعراء مرده إلى المنزلة الأدبية أو سبب سيرورة الشعر، أو كثرة النتاج الشعري أو جودته، أو سبب القدرة على التصرف في فنون الشعر المختلفة (الفحولة) لقوله: «فاقتصرنا على الفحول المشهورين»[2].

وأمّا تصنيفه الشعراء حسب بيئاتهم مثل: شعراء القرى وشعراء المدينة، وشعراء مكة وشعراء الطائف وشعراء البحرين، إنما كان يريد منه توضيح أثر البيئة في الإبداع الشعري، والإقرار بأن البيئات الجاهلية لم تكن متساوية في إنتاج الشعر وإبداعه، ولقد لخص بعض الدارسين مقياس الطبقة عند ابن سلام في العناصر التالية:

أ-مقياس الكم الشعري: إذ قدّم المكثرون في الشعر وأخر المُقِلُّون الذين قل شعرهم بأيدي الرواة، وقد أكد محمد مندور على هذا المنحى لدى ابن سلام[3].

ب-مقياس المكان: مال ابن سلام إلى تفضيل شعراء البوادي وقدمهم على شعراء الحواضر لقناعته أن مخالطة الشاعر البيئات الحضرية يورث اللين والضعف، بدليل أنه جعل عدّي بن يزيد من الشعراء المتأخرين، على الرغم من نشأته البدوية إلا أنه خالط الكثير من الحواضر.

ج- مقياس الزمان: المتأمل في طبقات ابن سلام يرى أنه اعتمد الزمن في توزيعه الشعراء على طبقات، حيث بدأ بشعراء قبل فترة الإسلام، بمعزل عن الشعراء الإسلاميين، باعتبار أنهم يمثلون حقبة أدبية متميزة، في أسلوب حياتها ولغة شعرها.

د-مقياس الدين: مال ابن سلام إلى تقديم الشعراء المتدينين في مراتب متقدمة وتعمد تأخير بعض الشعراء الذين عُرفوا بقلة الورع والدين وإسرافهم في المجون، فامتنع عن تصنيف عمر بن أبي ربيعة ضمن شعراء الغزل، وعبر في كتابه عن نفر من الشعراء سماهم بالمتعهرين الفساق، في حين نعت المتدينين بالمتألهين المتعففين.

6-أهمية كتاب طبقات فحول الشعراء: أهم ما يعنينا في هذا الكتاب هي تلك المقدمة النقدية التي مهد بها ابن سلام لكتابه، فضمنها آراء نقدية في غاية الأهمية، نجملها في النقاط التالية:

- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمد شاكر، دار المدني بجدة، (د.ت)، ص 24 و25.[1]

- المصدر نفسه، ص 25.[2]

- راجع محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، 1972، ص 20.[3]

- ضرورة تحري الصحة في الشعر المنقول خاصة الروايات التي تنسب إلى حماد الراوية «العجب لمن يأخذ عن حماد»[1]، وكذلك ابن إسحاق الذي كان «أوّل من هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء»[2].

- إشارته غلى الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الناقد، ورأس هذه الشروط الذوق والدربة والمراس والمعرفة بصناعة الشعر وثقافة اللسان.

- أورد ابن سلام آراء في بعض معاصريه وسابقيه من علماء الشعر كخلف الأحمر الذي قال عنه: إنه كان أفرس الناس بيت شعر، وشهادته للأصمعي وأبي عبيدة بأنهما من أهل العلم وشهادته للمفضل الضبّي بأنه أعلم من عرفهم ابن سلام من الكوفيين.

عموما يمكن القول إن كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ضم بين دفتيه نظرية علمية في المقدمة لدراسة الشعر الجاهلي والمخضرم لتبيان صحيحه من زائفه، كما قدم لنا منهجا علميا للمفاضلة بين الشعراء والموازنة بينهم، وتحديد المراتب والمنازل التي بلغوها بالنظر إلى معايير ككثرة الشعر وتعدد الفنون التي خاض فيها الشاعر وتوخيه للجودة والإتقان في الصنعة، ولذا عُدّ مُؤَلفه (طبقات فحول الشعراء) من أبرز الكتب التي فتحت آفاقا جديدة أمام نقاد الأدب ودارسيه ليساهموا في تطوير الحركة النقدية.

7-المآخذ التي وجهت لابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء):

- اضطراره إلى تقديم شعراء وتأخير آخرين بسبب التزامه بالأرقام التي وضعها أثناء التصنيف (10 شعراء في كل طبقة و4 شعراء من كل طبقة)، والغريب في الأمر أن ابن سلام يقر بتقصيره في حق بعض الشعراء أمثال أوس بن حجر الذي يستحق أن يكون في الطبقة الأولى من شعراء الجاهليين.

- اعتماده على مقياس الكم الشعري، وهو مقياس غير موضوعي، إذ يصبح الشاعر الأكثر إنتاجا أسبق منزلة ولو كان شعره أسوء من حيث الجودة، أبرز مثال على ذلك تقديمه لجميل بن معمر على كثيّر عزة، على الرغم أنّ كثيّرا قال في أغراض وفنون غير الغزل.

- هناك من انتقد كتاب (طبقات فحول الشعراء) على أساس أنه استنفذ ملاحظاته النقدية في المقدمة، وعندما وصل إلى صلب الكتاب تحول عمله من ناقد إلى مؤرخ للأدب، فاقتصرت مهمته على تراجم الشعراء والتعريف بهم وإيراد بعض أخبارهم.

---

[1] - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص 15.

[2] -المصدر نفسه، ص 14.